الفصل السادس

الأدب العربىّ فى أوربا

من المفيد أن نعرف شيئاً عن الأوضاع فى أوربا ، والحالة التى كان عليها أهلها قبيل قيام الأدب العربى برحلته إليها ؛ وخوفاً من أن نرمى بشبهة التحيز ندع الكلمة الأولى فى هذا البحث لمحقق أوربى بعيد عن مثل هذه الشبهة ، هو الكاتب الفرنسىّ « روبير بريفو » . . . فقد قال :

« بينما بدأت قصص الفروسية الأجنبية ، المثيرة للمشاعر ، تلوح فى أوربا خلال القرون الوسطى ، وأخذت الأساطير السلتية الملهبة للخيال تستنشق أولى أنفاسها ، ازدهر فى جنوب فرنسا شكل أدبىّ ، أجنبىّ هو أيضاً عن الأدب الأوربى التقليدىّ ؛ وهبت فى كل مكان نفحات إلهام غنائى جديد ، فنقلت الحصب إلى اللغات المحلية العامية التى كانت وقتذاك فى بدء تكوّنها . وانتشرت فى إقليم " بروڤانس " أشعار عاطفية ذات معان منتقاة ، وصياغة مدروسة متقنة ، فتجاوبت مع الحالة الفكرية لمجتمع إقطاعى بدأ ينشد متعة فراغ مزدان بالظرف والبهجة بعد ما استشف أبهة الشرقيين فى إسبانيا ، وتأثر بسمو مشاعرهم ؛ وفطن عندئذ لخشونته البربرية . . . وقد أمدّت هذه المنظومات العاطفية الغنائية شعراء الشبيبة بنماذج أدبية ، وتردد صداها فى شعر ذلك العصر ، وأغانى المنشدين المتجولين فى الشمال . . . وهى التى انبعثت بعد حين لألاء ذلك الشعر الإيطالى الذى أيقظ دويه أوربا بأسرها ، وبعث حتى فى ألمانيا وإنجلترا بشائر تقليد أدبى جديد »[1] .

هب تيار هذا الأدب الجديد على أوربا من ناحيتين ؛ من الشرق العربىّ ، والغرب العربى . . . من سوريا ومصر فى الشرق ، ومن الأندلس فى الغرب . . . ومر فى أثناء هبوبه على أصقاع كانت ميادين أدبها مقفرة ، إلا إذا استثنينا آثاراً ميتة من الأدب اللاتينى ، وبدعا بدائية من الأساطير الوطنية .

كانت أوربا تعيش ، قبيل هبوب ذلك التيار فى ظل النظام الإقطاعىّ ،

---

(١) كتاب « التروبادور والعاطفة الرومانسية » ص ٩ .

مقسمة إلى مقاطعات شاسعة يحكمها أمراؤها حكماً استبدادياً مطلقاً ، غير مرتبطين بحكوماتهم المركزية إلا برابطة اسمية . وكان هم كل منهم أن يغير على جيرانه ، ويضم أقاليمهم إلى حكومته ، ويوسع دائرة سلطانه ، ويفاخر بحسن بلائه فى الحرب ، وبقوة بطشه وشدة مراسه ؛ فلا عجب أن تصبح الخشونة فى مثل هذه الحال طبعهم ، والغلظة ديدنهم ؛ وأن يستخفوا بمبتدعات الفكر والحسن من أدب وفن ؛ لا سيما وأن هذه المبتدعات لم تكن ، كما قلنا ، إلا مخلّفات أثرية من الثقافة الرومانية والإغريقية يقتصر الاهتمام بها على قلة من المثقفين .

فى ذلك الوقت تخطى عرب الأندلس جبال البرانس ، وأغاروا على جنوب فرنسا ، وتوغلوا فى مقاطعات « پروڤانس » ، وخالطوا أهلها ، واستمرت إقامتهم بها أكثر من قرنين [١] . وإذا كانوا قد ارتدوا عن تلك الأصقاع بعد اشتباكهم مع الفرنسيين فى حروب دامية ، فإن الأثر الذى تركوه فيها كان عميق الجذور ، ثم إن صلتهم بأهلها لم تنقطع حتى بعد جلائهم عنها ، لا سيما بعد أن عاد « البروڤانسيون » فاحتلوا أجزاء من شمال الأندلس .

وقال « دوزى » عن تلك الحقبة من التاريخ ، فى كتابه « الأدب الإسپانى فى القرون الوسطى » : « إنه لم تكن فى إسپانيا حدود ، بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، بين البلاد التى يحتلها العرب ، والبلاد التى يحتلها الأوربيون ، وإنما قامت بينها سهول شاسعة اعتاد المسلمون والمسيحيون أن يتلاقوا فيها ويخالط بعضهم بعضاً »[٢] .

وقال « روبير بريفو » فى ذلك : « إنه لم تكن هناك وقتذاك حواجز من الكراهية والعداء بين الأجناس والأديان على نحو ما نتصوره فى الوقت الحاضر . وقد نشأت فكرة خاطئة أشد الخطأ عن العلاقة بين المسيحيين والعرب فى شبه الجزيرة الإسپانية ؛ ومرجع هذه الفكرة إلى حكايات وهمية عن تلك الحقبة لفقها الملفقون بعد انقضائها بمدة من الزمن »[٣] .

ولم تكن مقاطعة « پروڤانس » ، وهى وطن الشعراء التروبادور ، جزءاً من فرنسا وقتذاك ، سواء من الناحية السياسية أو الثقافية ، بل كانت جزءاً من إسپانيا .

---

(١) كتاب « العرب فى أوربا » للدكتور على حسنى الخربوطلى ص ٣٣ .

(٢) الجزء الأول من ذلك الكتاب ص ٩٩ (النسخة الفرنسية) .

(٣) كتابه « التروبادور والعاطفة الرومانسية » ص ٥٠ .

وظل أمراؤها يناضلون ، منذ القرن التاسع ، ليفصموا صلة السيادة الاسمية التى فرضها عليهم ملوك فرنسا . وكانت غيرتهم على فصم تلك الصلة أشد كثيراً من غيرتهم على التخلص من الرابطة التى ربطتهم بالعرب طوال قرنين من الزمان ؛ وشغل بالهم مدّ سلطانهم شمالاً أكثر مما شغله خوفهم من غارات العرب على بلادهم . فقد كانت مصالحهم تحملهم جميعاً على مقاومة النفوذ الفرنسىّ ، والاعتراف بالسيادة الإسپانية[١] .

واعتاد أمراء العرب وأمراء « پروڤانس » أن يتزاوروا ، ويصحب كل منهم شعراءه ومنشديه عند القيام بزياراته . وكثيراً ما ربطت أواصر الصداقة بين بعضهم وبعض ، بل كثيراً ما تحالف أمير عربى وأمير أوربى على محاربة أعداء لهما من العرب أو من الفرنجة على السواء . ولم يظهر أثر للتعصب الدينى بين الشعوب الإسلامية والمسيحية خلال القرون الثلاثة التى عاشها المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب ، وكثر بينهم الاختلاط والتزاوج . ولم يكن الأمراء الأوربيون يفكرون خلال تلك الحقبة فى إجلاء العرب عن إسپانيا ، وإن طمعوا فى فتح مزيد من البلاد العربية ، وبسط سلطانهم على سكانها العرب[٢] .

وأيد المستشرق الإيطالىّ فرانشيسكو جابر يبلى هذه الوقائع بقوله : « لم تكن قرطبة وحدها ، خلال أيامها الزاهرة فى القرن العاشر ، مركزاً هامًّا للثقافة العربية الأندلسية ، ولكن طليطلة وإشبيليا وغرناطة ، وبلداناً ريفية أخرى ، كانت كذلك مراكز كبرى لهذه الثقافة ، بل لقد ظل بعضها على تلك الحال حتى بعد أن استردها المسيحيون . . . ولم يكن النشاط الفكرى والروحى يعرف فى تلك الآونة الخصبة التى امتدت حتى القرن الثالث عشر أية حدود سياسية أو دينية ، بل ظل فخراً للحضارة العربية ، وما نما من قبساتها فى التربة الأوربية »[٣] .

واتخذ الأدب العربى أيضاً طريقاً آخر إلى أوربا إذ انتقل إلى بعض جزائر البحر الأبيض المتوسط مع الغزاة العرب ، ثم زحف معهم إلى شواطئ إيطاليا ، واصطحبهم حتى سفوح جبال الألب .

---

(١) المرجع المذكور ص ٤٩ .

(٢) المرجع المذكور ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) كتابه « العرب » ، الطبعة الفرنسية ص ١٧٢ .

وتحدث المستشرق الإيطالى المذكور عن احتلال العرب لجزيرة صقلية فقال : إن أهميته لم تبلغ أهمية احتلالهم الأندلس نظراً إلى قصر مدته التى تبلغ زهاء قرنين من الزمان . ولكن له ، مع ذلك ، أهمية خاصة فى نظر الإيطاليين لأنه يمسهم مباشرة . . . لقد انتهت سيطرة العرب على تلك الجزيرة عندما غزاها النورمانديون فى آخر القرن الحادى عشر ؛ وإذا كان التاريخ لم يذكر الشىء الكثير عن عصر احتلال العرب لها ، فإن بصمات ذلك الاحتلال ظلت واضحة كل الوضوح فى لغة أهلها ، وفى ثقافتهم . . . ومجمل القول إن الحضارة العربية الإسلامية ظلت سائدة فى صقلية ، بعد جلاء العرب عنها ، مدة قرن من الزمن ، وعرف المحتلون الجدد كيف يقتطفون ثمار التراث الإسلامى ، ويستمدون منها ثقافة دولتهم المختلطة[١] .

وفى أثناء تلك الحقبة اختلط الأوربيون بالعرب فى مكان آخر ؛ وذلك عندما انتقلوا بدورهم إلى الشرق العربى ، وشنوا على الشام ومصر حربهم الصليبية . ونعود هذه المرة أيضاً فندع الكلمة الأولى عن هذا الاختلاط لكاتب عربى مغترب هو « فيليب حتى » ، أستاذ الأدب السامى فى جامعة « پرينستون » . قال : « ولابد أن نذكر ، قبل أى شىء آخر ، أن المسيحيين جاءوا إلى الأرض المقدسة وهم يؤمنون بفكرة أنهم أرقى كثيراً من سكانها العرب ، فقد كانوا يعدونهم وثنيين يعبدون محمداً على أنه إله : ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل عندما وجدوا أنفسهم أنهم أقل منهم مرتبة . أما الأثر الذى خلفوه هم فى نفوس المسلمين فقد عبر عنه " أسامة " عندما رأى فيهم حيوانات لا تتصف بأية فضيلة إلا الشجاعة وحسن البلاء فى القتال . . . وقد أحدثت العشرة المفروضة على المسيحيين والمسلمين فى زمن السلم تغيراً جوهرياً فى عواطف كل فريق تجاه الآخر — علماً بأن أوقات السلم كانت أطول كثيراً من أوقات الحرب — ولم تلبث أن توطدت بين الفريقين علاقات جوار ودية . . وقد نبذ بعض الفرنجة ملابسهم الأوربية ، واستبدلوا الملابس الوطنية بها لأنها لم تكن مريحة وملائمة مثلها . . وقد آثروا أيضاً البيوت الشرقية ذات الساحات الواسعة التى يجرى فيها الماء . . . واختلط بعضهم ببعض الوطنيين وتزاوجوا . . . »[٢]

---

(١) يراجع كتابه المذكور ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) تاريخ العرب ، النسخة الإنجليزية ، الطبعة الثامنة ص ٦٤٣ .

وليس من الطبيعى ألا يؤثر هذا الاتصال والتوشج تأثيرهما المحتوم ؛ وألا يبدّد لألاءُ الثقافة العربية ظلمات الجهالة الأوربية ، ويخطف أبصار الأوربيين ، وينير عقولهم وأفئدتهم ، ويستنهضهم للأخذ بأسباب التقدم .

وليس من الطبيعى كذلك أن ينبثق فى إقليم پروڤانس بالذات خلال تلك الحقبة بالذات ، طراز جديد من الأدب يختلف عن الأدب الأوربى السابق عليه كل الاختلاف ، ويشبه الأدب العربىّ الوافد عليه كل الشبه ، ولا يكون مع ذلك بهذا الأدب الأخير طبقاً لما شرحناه من ناموس تنقل الحضارات وتأثر بعضها ببعض .

ولعل هذه الحقيقة التى حاولنا ، فى الفصول السابقة ، إثباتها بالشواهد العامة ، والقرائن التاريخية ، تحتاج إلى أدلة خاصة بها لإقناع الذين يرفضون الاقتناع بشىء عن طريق القياس الجدلىّ وحسب .

كان إقليم پروڤانس — الذى أقام فيه العرب ، كما قلنا ، زهاء قرنين من الزمان — موطن الشعراء « التروبادور » ، وهم السابقون إلى نظم ذلك الطراز من الشعر الأوربى المشابه للشعر العربىّ . و « كلمة (تروبادور) التى يتصفون بها مشتقة من كلمة (طرب) العربية التى أضيفت إليها الأداة الدالة باللاتينية على اسم الفاعل ، وهى (أدور) ، فصارت (طروبادور) ، أى الشعراء المطربون »[1] ... ولا يخفى أن هؤلاء الشعراء يختلفون عن « التروڤير » وهم المنشدون الجوّالون .

وأول شاعر « پروڤانسى تروبادورى » سجل التاريخ اسمه هو جيوم التاسع ، « كونت پواتييه » ، و « دوق أكيتانيا » . . . ويعد هذا الدوق أيضاً أول من نظم شعراً من نوع الشعر الأوربىّ الحديث[2] . ويزعم بعض المؤرخين الأوربيين أنه ابتكر شعره الجديد اللون ابتكاراً دون أن يتأثر بغيره من الشعراء ؛ ويخالفهم فى ذلك مؤرخون متعصبون للأدب اللاتينى يزعمون أنه استمد شعره من معين ذلك الأدب ؛ ويدعى آخرون أنه استمده من الأغانى الشعبية التى نبتت فى باريس ، ثم انتشرت بعدئذ فى سائر أرجاء أوربا .

وعلينا إزاء هذا التجنى على الحقيقة أن نذكر الأدلة التى تقطع بأن هذا الأمير

---

(١) كتاب « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٥٨ .

(٢) تراجع صفحة ١٧ من الكتاب المذكور .

الشاعر إنما تأثر بالشعر العربى الشرقى والأندلسى على السواء ، واتخذ منهما نماذج لشعره .

فى عام ١٠٨٦ خلف الكونت جيوم التاسع أباه فى حكم مقاطعة « بواتييه »، ولم يكن قد تجاوز وقتئذ الخامسة عشرة . . . وفى عام ١٠٩٤ تزوج « فيليبا » ، أرملة ملك أراجون ، ورحل إلى إسپانيا حيث قضى معها صيف ذلك العام وخريفه ... وكانت له أخت متزوجة بالأمير « پيدرو » الأرجوانىّ ، وأخت أخرى متزوجة بألفونس السادس ، أمير قشطالة ، فتردّد على إسپانيا كلما سنحت له فرصة لزيارة صهريه هناك ، وبهرت الفنّى المتوقد الحس ، الشاعرىّ المزاج ، مباهج الحياة الأندلسية ، وسحر فنونها العربية .

وحدث بعد ذلك أن اشتدت حركة الانضمام إلى الصليبيين ، ولم يستطع الكونت الشاب إلا أن يجارى تيار تلك الحركة ، فسافر إلى الأناضول على رأس جيش من فرسان پواتييه للاشتراك فى الحرب الصليبية ، ومنى هناك بالهزيمة ؛ وزعم المؤرخ « أوردريك ڤيتال » أن الكونت ، بعد عودته من الشرق عام ١١٠٢ ، طفق يتردد على المجتمعات الراقية فى پواتييه ، وينشد فيها قصائد مقذاة ، ذات أنغام مبهجة ، تتضمن وصفاً للذل الذى كابده عندما وقع أسيراً فى أيدى العرب . . . ولكن « روبير بريفو » أنكر هذا الزعم ، وقال : « إن الكونت لم يقع فى الأسر قط ، ولكنه ، بعد اندحار جيشه ، نزل ضيفاً فى أنطاكية على الأمير " تانكريد " الصقلى وأمضى فى ضيافته ما يقرب من عام تمتع خلاله برغد الحياة الشرقية ، وأتيحت ، فرصة الإلمام بالشعر الأندلسى الذى كان منتشراً آنذاك فى ربوع الشام »[١] .

والذى نعقب به على قول « بريفو » هو أن الكونت جيوم دى بواتييه لم يلم بالشعر الأندلسى فى الشام ، فقد كان على علم به من قبل ، ولكنه ألم هناك بالشعر العربى الشرقى ، وتأثر به ، ونظم قصائده الأولى على غراره . ونحن نستشهد على هذا بما قرره بريفو نفسه إذ قال إن التاريخ لم يحفظ من منظومات ذلك « الكونت » الشاعر إلا إحدى عشرة منظومة ، والمنظومات الثلاث الأولى منها تختلف عن باقيها كل الاختلاف ؛ فهى من شعر الحماسة وشعر الحمريات — وهذا النوع من الشعر

---

(١) يراجع الهامش رقم ٩٩ من كتاب التروبادور والعاطفة الرومانسية .

لا أثر له فى منظومات الشعراء التروبادور ، وإن كان موفوراً فى الشعر العربىّ — وهى من حيث الشكل لا تختلف عن « القصائد » العربية ، وأبيات كل منها تبلغ زهاء عشرين بيتاً ، وتلتزم قافية واحدة . . . ويخلص بريفو مما تقدم إلى أن شعر دى بواتييه جميعه ، ما عدا قصائده الثلاث المذكورة ، يطابق الشعر الأندلسى مطابقة نموذجية[١] .

ويقول ذلك الكاتب فى موضع آخ من كتابه : « وإذا كان جيوم بواتييه قد مال إلى الشعر العاطفى الغنائى ، وأخذ ينظم أبياتاً من نوعه ، فإنه أدخل تعديلا على شكل شعره ، وحدث ذلك بعد إقامته فى إسپانيا ؛ وأسباب هذا التعديل تحتاج إلى إيضاح ، ولكنها لم تظهر بالتفسير المقنع إلى الآن »[٢] .

بيد أن ذلك التفسير لم يكن ليستعصى على بريفو لو أنه استرشد منذ البداية بالمنطق الطبيعى المعقول ، وأدرك أن جيوم دى بواتييه ، تأثر ، وهو مقيم فى الشام ، بشعر الشام العربىّ ، وأخذ ينظم شعراً على غراره ؛ ثم استهواه الشعر الغنائىّ الأندلسىّ بعد إقامته فى الأندلس ، فعدل عن طريقته الأولى فى النظم ، وعمد إلى محاكاته ، وليس التعديل الذى أدخله على شعره إلا نتيجة لا زدياد حذقه فى مجال المحاكاة .

ولا يفهم مما تقدم أن الأدب العربى فى الشرق خلا كلية من الشعر الغنائى ، أو أن الأدب الأندلسىّ خلا من القصائد المطولة ذات القافية الواحدة ، فقولنا منصرف إلى نوع الشعر الأغلب والأشهر فى الأدبين المذكورين .

وقد لوحظ أن جيوم دى بواتييه احتذى الموشحات الأندلسية دون أدنى تصرف ، وأن الشاعرين « ثركامون » و « مركبرو » نسجا على منواله ، وهما أشبه الشعراء التروبادور به ، وأقربهم عهداً إليه . . . وعقب بريفو على هذه الملاحظة بقوله إن منظومات الشعراء التروبادور الأولى تطابق النماذج الأندلسية تمام المطابقة ، وقد اتخذتها الأجيال التالية نقطة انطلاق ، ثم ابتعدت عنها بما أدخلته على شعرها من تنويع فى الصياغة[٣] .

نخلص من ذلك إلى أن جيوم دى بواتييه تعلق بالشعر عقب احتكاكه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦ .
(٢) المرجع المذكور ص ٤٧ .
(٣) المرجع المذكور ص ٣٧ .

بالعرب ، وتعلم منهم فنونه ، وحاكى كل ما ترامى إليه من ألوانه ، ومن المعروف أن شعره بدأ ينضج فى العشرينيات من القرن الثانى عشر ، وهى المدة التى طالت بها إقامته فى الأندلس ، فقد سافر إليها عام ١١١٥ ، واشترك فى حملة شنها ألفونس الأول ، ملك أراجون[١] ، على العرب ، ووصلت جيوشه جنوباً إلى غرناطة ، وبلغت شرقاً مشارف قرطبة . . . وعاد شاعرنا الأمير إلى الأندلس ثانية فى عام ١١١٩ ، حليفاً للملك ألفونس ، واستنشق فى أراجون من جديد نفحات الحضارة العربية ؛ فقصور تلك البلاد الأنيقة الفخمة ، وبساتينها المنسقة الزاهرة ، وشوارعها المتسعة المشرقة ، وحوانيتها الملأى بمختلف السلع ، لم تكن إلا بعض مخلفات العرب . وفى هذا الوقت كانت أواصر الصداقة والمودة قد توثقت بين أمراء العرب وأمراء الإسبان ، وكثر التزاور فيما بينهم ، وكان كل أمير يصحب فى زياراته شعراءه ومنشديه ، فازداد بذلك اختلاط الشعراء الإسبان والبروڤانسيين بالشعراء العرب ، وتعلموا منهم المزيد من فنون الشعر وإنشاده ، وتحولت حفلات القصور إلى محافل أدبية ، وكان الأمير الشاعر يحرص على حضور تلك المحافل ، فصقل ذلك موهبته الفنية ، وفجر ينابيع شاعريته ، وثبت أقدامه فى ميدان الأدب .

ولا شك أن شهرة ذلك الأمير الذى كان يفوق ملك فرنسا جاهاً وسلطاناً ، سلطت الضوء على الشعراء ، ورفعت مكانتهم عند سائر أمراء أوربا ، واستثارت الاهتمام بهم فى أرجاء تلك القارة ، ففتح لهم أصحاب السلطان أبواب قصورهم ، واشتركوا معهم فى إنشاد الشعر دون أن يجدوا فى ذلك غضاضة ، وسرعان ما انتشر الشعر الأندلسى مترجماً إلى اللغات الأوربية المختلفة ، وترددت أصداؤه فى أوربا مؤذنة بانبثاق فجر نهضتها الأدبية . . .

ويرى المؤرخ نيكل « أن ذلك الشاعر الأمير المتأثر بالأدب العربى افتتح عهد ازدهار الشعر فى پروڤانس » . . . وقد ورثت عنه ذريته ميوله الأدبية ، فاشتهر ابنه جيوم العاشر بميله إلى الشعراء ، ورعايته لهم ، إلى حد أن رثاه الشاعر التروبادور « ثركامون » ، بعد وفاته ، بأبيات ختمها بقوله إن الشعر مات بموته .

---

(١) كانت مملكة أراجون تضم وقتذاك جزءاً من جنوب فرنسا الشرقى ، وجزءاً من شمال الأندلس ، الشرقى أيضاً ، وتمتد غرباً إلى طليطلة وسرقسطه .

ويرى « جاستون بارى » أن الفضل فى انتشار أشعار التربادور فى شمال فرنسا ، وانتقالها إلى إنجلترا ، يرجع إلى الملكة « إليونور » ، حفيدة « جيوم دى بواتييه » ، فالدلائل كلها ، فى نظره ، تشير إلى ذلك .

ومن المعروف أن « إليونور الأكيتانية » المذكورة حببت ذلك اللون العاطفى من الشعر ، عند اعتلائها عرش فرنسا ، إلى أمراء أقاليم « شمپانيا » و « پيكارديا » و « أرتوا » ؛ وأنها بعد أن أصبحت ملكة لإنجلترا ، دعت الشعراء التروبادور إلى عبور المانش ، وفتحت لهم أبواب قصرها ، وكانت السبب فى تذوق الإنجليز لمنظوماتهم الغنائية العاطفية .

وقد اشتهر من الشعراء التروبادور الذين عقبوا « جيوم دى بواتييه » كل من « ثركامون » و « مركبرو » — وقد سبق ذكرهما — و « أليجريه » و « جيرو دى كالونسون » ، و « پير دوڤيرن » الذى يعد من أهم من دعموا أساس فن الشعر البروڤانسى ، و « جيرو دى بورنيل » الذى يعد أستاذاً لمعاصريه من الشعراء التروبادور — ويلاحظ أنه قضى الجانب الأكبر من حياته فى إسپانيا — و « أرنو دانييل » ، ثم « پير ڤيدال » الذى يحتل ، فى نظر الكثيرين ، مركز الصدارة بين شعراء عصره ؛ ونكتفى بذكر هذه الأسماء الشهيرة ، فإن قائمة سائر الشعراء التروبادور طويلة ، والجدير بالذكر أن أغلبهم كانوا يترددون على قصور أمراء الأندلس ترددهم على قصور أمراء پروڤانس .

وإذا لاحظنا أن بعض الأسماء التى ذكرناها تدل على أن أصحابها من ذوى الألقاب أدركنا مبلغ احتفاء مختلف الطبقات بذلك اللون من الشعر الأندلسى الأصل ، وإقبالهم على نظمه ، أو الاستماع إليه .

ومن ناحية أخرى لم تخل قصور الأمراء المسيحيين فى إسپانيا وپروڤانس من الشعراء العرب . بل إن أى رجل ميسور الحال فى هذين البلدين لم يكن يقيم حفلاً إلا دعا إليه أولئك الشعراء . وكان بلاط الملك سانكو الرابع يضم ثلاثة عشر شاعراً عربياً ، واثنى عشر شاعراً مسيحياً ، وشاعراً يهودياً واحداً .

هكذا كان الشعراء الأوربيون يختلطون بالشعراء العرب ، ويتلقنون منهم أسرار فنهم ، وينظمون شعراً يماثل شعرهم فى أسلوبه ومعانيه . . . وقد قال « بريفو » فى

ذلك : « إن من يجادل فى الصلة القائمة بين الأدب العربى الأندلسىّ والأدب البروڤانسىّ لهو كمن ينكر مثلاً تأثير الأدب الفرنسى فى " أندريه شينييه " أو " ألفونس دوديه " »[1].

ونعود إلى جيوم دى بواتييه فنقول إن كثيرين لا يسلمون بأنه كان أول الشعراء التروبادور فى السبق الزمنى . وأول من نظم الشعر بلغة بلاده العامية ؛ وحجتهم أن أسلوبه الدقيق الصياغة ، الأنيق العبارة ، يدل على أنه لم يسلك فى نظمه للشعر طريقاً وعراً غير مطروق ، بل سلك طريقاً مهده له شعراء سابقون . فاللغة العامية لا تتمكن من التعبير فى دقة وبراعة عن معان جديدة مبتكرة ، ومن تحليل مشاعر تسمو على مستوى المشاعر العادية ، إلا بعد تحولها إلى لغة أدبية ، وهذا لا يتأتى ، كما قلنا فى فصول سابقة ، إلا بجهود أجيال بعد أجيال من شعراء يعملون باطراد على صقلها وتهذيبها ، وتنمية قدرتها على التعبير الأدبىّ .

وأصحاب هذا الرأى على صواب ظاهر ، ودليلهم عليه مقنع . ولكننا نضيف إليه أن ورود اسم « جيوم دى بواتييه » فى أول قائمة الشعراء التروبادور ، يرجع كذلك . فيما نرى ، إلى أن مهنة نظم الشعر كانت موضع الاستخفاف من الكافة قبل اشتغال الأمير بها ، فلا عجب إذا لم يحفل أحد بتسجيل أسماء من سبقوه من أولئك الشعراء المغمورين ، والاحتفاظ بمنظوماتهم .

ثم إنه ليس من الطبيعى أن تتوثق الصلة بين الأوربيين والأندلسيين فى خلال فترات الهدوء التى تخللت ما قام بينهما من حروب ، وأن يأخذ الأولون بأسباب حضارة العرب فى الميادين العمرانية ، ثم لا يتأثرون مع ذلك بآدابهم وفنونهم ؛ فالشواهد التاريخية تجمع ، كما سبق القول ، على أن ذلك التأثر حتمىّ فى حالة توثق مثل تلك الصلات .

ومن دلائل ذلك التأثر أن الأوربيين ، منذ بدء اتصالهم بالأندلسيين ، عنوا عناية خاصة بترجمة آداب العرب ، إلى جانب ترجمة علومهم ، ولقيت هذه الترجمات رواجاً كبيراً بينهم ؛ والشاهد الواقعىّ على أنها أحدثت أثرها فيهم ، وأسفرت عن محاكاة شعرائهم للمنظومات العربية قبل تألق نجم « جيوم دى بواتييه » ،

(١) كتابه السالف الذكر ص ٥٠ .

هو ملحمة « أغنية رولان » الفرنسية التى انعقد الإجماع على أنها الشعاع الأول الذى بزغ فى أفق الأدب الغربى الحديث ؛ فهذه الملحمة ، باعتراف بعض المؤرخين ، ومنهم مؤرخون فرنسيون ، مدينة فى وجودها لاتصال الأوربيين بعرب الأندلس فى أثناء الاشتباكات العسكرية التى وقعت بين الطرفين[١] .

ومن رأى ريبيرا فى كتابه « الملاحم بين المسلمين والإسپان » أن جميع قصص البطولة التى نظمت باللغات المشتقة فى ذلك الوقت من اللاتينية كانت مقتبسة — شكلاً — من أصل أندلسى . « وأغنية رولان » مستمدة ومستوحاة من المعارك التى نشبت بين العرب والإسپان منذ أوائل القرن الحادى عشر إلى أوائل القرن الثانى عشر ، واشترك فيها عدد غير قليل من الفرسان الفرنسيين . ولا شك أن قصص البطولة المنظومة كانت واسعة الانتشار ، ولكنها لم تكن مقفاة ؛ أما أغنية رولان فهى فى شكلها لا تختلف عن القصيدة العربية ... ويتفق «بيديه» مع ريبيرا فى هذا الرأى .

ولعله يبدو أن الصلة التى قامت فى ذلك الحين بين الشعر الأوربى المستجد والشعر العربى الأندلسى ، أوضح من أن يحتاج إلى كل هذه الأدلة والأسانيد ، ولكن عنت بعض المؤرخين المنكرين لها ، على الرغم من وضوحها ، يضطرنا إلى عرض آرائهم فى هذا الصدد ، والاستشهاد بمزيد من آراء من خالفوا وجهة نظرهم .

جاء فى بحث للكاتب الفرنسى چانروا ، نشره فى مجلة « العالمين » الفرنسية : « أما عن أثر العرب فى أوربا ، ذلك الأثر الذى تحدثوا عنه كثيراً وقلما كان الأخذ بالظاهر الخادع يغلب على الدراسة الواعية ، فمن المحتمل أن يكون مجرد أسطورة ، وهذا الاحتمال يزداد فى واقع الأمر وضوحاً يوماً بعد يوم » .

وشاطره « رينان » هذا الرأى مردداً ما كان يدور على ألسنة الأكاديميين فى عصره ، ومما قاله فى ذلك : « أما عن ذلك التأثير الأجنبى ، الأدبى والمعنوى ، فقد بولغ فيه كثيراً . والحقيقة أن الشعر البروڤانسى ، والفروسية الأوربية ، ليسا مدينين فى شىء للمسلمين ، فهناك هوة سحيقة تفصل الشعر الرومانى الأصل ، فى شكله ومضمونه ، عن الشعر العربى . وليس هناك دليل ما على أن الشعراء المسيحيين كانوا على علم بقصيدة عربية واحدة ، ولو حدث وكانوا على علم بوجود الشعر العربى ،

---

(١) يراجع كتاب « فيليب حتى » المذكور ، ص ٥٦٢ من النسخة الإنجليزية .

فمن المؤكد أنهم لم يكونوا يستطيعون فهمه لغة ومضموناً »[١] .

ولم يسلم هذا الرأى من نقد الناقدين ، وليس أدل على مخالفته للواقع من قول « ألفار » ، أسقف قرطبة : « كان هناك شعراء أوربيون كثيرون ينظمون بالعربية شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم فى أناقته » . وقال « ڤيتسموريس كيلى » عن قصيدة « يوسف » المقتبسة من أصل عربىّ إن ناظمها كتبها بالأحرف العربية . ومما قاله بترارك نفسه : « أما من ناحيتى فإنى لم أجهل الشعراء العرب » . وهو لم يجهل كذلك تفوقهم ، وكان يضيق به ، وعبر عن هذا الضيق بقوله : « إننا لحقنا فى مضمار الأدب بأمم كثيرة ، وفقنا بعضها ، ما خلا العرب ، فيا لخيبتنا »[٢].

ولا شك أن العاطفة الوطنية أثرت فى أحكام كثيرين من المؤرخين الأوربيين ومن أدلة ذلك قول « شيرر » إن شعر الغزل نشأ أول الأمر فى بعض ربوع ألمانيا والنمسا . . . وذهب « هارتمان » الألمانى إلى أبعد من ذلك إذْ قال : « إن شعر " پروڤانس " نقله الغوط إليها من ألمانيا »[٣] . وحاول « جاستون بارى » تتبع جذور الشعر البروڤانسى فى شمال فرنسا ، وإثبات أنه نبت أول ما نبت هناك .

ومما جاء فى بحث « چانروا » السابق الذكر : « وفى الحق إن الشعر اللاتينى اندثر منذ مدة طويلة سابقة على ظهور شعر التروبادور الذى يبدو لنا ، منذ نشأته ، غير متأثر بأى نفوذ أجنبىّ ، فقد نبت فجأة كما تنبت الزهرة من الأرض دون جذر أو جذع أو فرع تنبثق منه » .

وردد « دييز » هذا المعنى فى كتابه « الحب والصياغة فى شعر التروبادور » إذ قال : « ولكن كم يختلف شعر التروبادور عن مختلف الأشعار الأخرى ، فلشدّ ما أسرع فى تطوره ! . . . أنه أشبه ببستان مسحور ازدهر فجأة بلمسة من عصا ساحر ! » .

وقد نقد « بيديه » هذا الرأى فى بحث نشره أيضاً فى مجلة « العالمين » ، قال : « إن هذا الرأى يمت إلى عالم السحر والتنجيم أكثر مما يمت إلى بحث علمىّ لمصادر

---

(١) كتابه « تاريخ اللغات السامية » ص ٣٠٧ .

(٢) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٥٦٩ .

(٣) كتابه « الشعر العربى » ص ٢٣٧ من النسخة الفرنسية .

هذه الافتراضات ، وإننا نرى أن (ملامح) شعر التروبادور التى أقام عليها چانروا صرح حدسه ، كانت من قبل شائعة معروفة فى الشعر الأندلسىّ العربى » .

وفى أحد أعداد « مجلة النقد » كتب پول ميير يقول : « لا توجد أية صلة بين الأدب اللاتينى وشعر التروبادور » . ولكن هذا الكاتب لم يذكر المصدر الذى نبع منه هذا الشعر .

وهناك كتاب آخرون يرون هذا الرأى منهم جاستون پارى الذى قال فى كتابه « الشعر فى القرون الوسطى » ، صفحة ٢٢ : « لم يكن للذين يعرفون اللاتينية أى تأثير فى شعر التروبادور المنظوم باللغة الدارجة ، بل إنهم كانوا يحتقرونه » . وقال أيضاً فى كتابه « تاريخ شارلمان السياسىّ » صفحة ١٥٠ : « الشعراء التروبادور هم الذين ابتدعوا أسلوب الشعر الأوربى الحديث » .

وقال « أنجلاد » فى كتابه « تاريخ مختصر لشعر جنوب فرنسا » « نشأ شعر التروبادور ، وصار له كيانه خارج دوائر المثقفين فى عصره » .

وعقب « بريفو » على هذه الآراء بقوله : « ولكن الأمر لم يعد اليوم كما كان بالأمس . . . فبينما لم يقم أى دليل على وجود نشاط أدبى فى أوربا المسيحية ، قبل القرن الثانى عشر ، له صلة بفن التروبادور ، تتوافر لدينا تفاصيل عن نشاط الشعر العاطفىّ الأندلسىّ الذى انتشر فى أوربا منذ القرن العاشر . . . وفى أيامنا الحاضرة ، على الأخص ، تزايدت معرفتنا بذلك الأدب وتأثيره فى البلاد المجاورة له إلى حد أنه لم يعد مسموحاً لنا أن نتمادى فى التزام الصمت إزاء هذه الحقيقة دون أن نعترف بغفلتنا . ولا بد أن يحين الوقت الذى نتخذ فيه موقفاً أقرب إلى الفهم الصحيح بدلاً من التمسك بآراء ظلت مدة طويلة شائعة بين الأكاديميين . . . آراء لا تعبر ، على أية حال ، إلا عن حالة خاصة من حالات انحراف قديم منبعث ، على الأغلب ، من تصور تاريخىّ غير ملم بأى شىء عن الإسلام ، يأنف من أن يعترف بأن المسيحية التى كانت بربرية ، مدينة بشىء ما لحضارة "كافرة" . بيد أن هناك عدداً غير قليل من المثقفين فى فرنسا اقتنعوا عن طواعية بأن شعر " پروڤانس " العاطفى نبت أول ما نبت فى بعض أنحاء باريس ، ووجدوا أن البحث عن جذوره عند العرب عبث يزجى به العابثون أوقات فراغهم ؛ وقد ساعدت على هذا الاقتناع

وجهات نظر متفقة مع المشاعر الوطنية أذاعها بعض المعروفين من مؤرخى القرون الوسطى .

« بيد أن الذين تغنوا بهذا الشعر العاطفى لم يتورعوا عن الالتجاء إلى العرب بحثاً عن آلات العزف التى ينشدون شعرهم على وقع أنغامها . ثم إن حماة أولئك الشعراء كانوا يقصدون العرب كذلك بحثاً عن مظاهر الأناقة والأبهة التى ابتعثت فيهم الذوق المهذب . وقد سمحت لهم أموالهم المتكاثرة أن ينعموا بمثل تلك المتع ويستزيدوا منها . ولم تتدفق عليهم تلك الأموال إلا من بلاد العرب عن طريق التجارة . . . وكانت أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تلتجئ إلى العرب لتنقل عنهم أسرار الصناعات الجديدة ، وتتلقن المعارف وفنون الملاحة التى طورتها فيما بعد . . . وعلوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء . . وتجلب مؤلفات أرسطو وابن سينا وابن رشد . . . وقد قصد إلى بلاد العرب كل من " دانيال دى مورلى " و " ميشيل سكوتوس " و " جيرار دى جريمون " و "جيربير دوريلاك " و " ريمون لول" بحثاً عن جذور عالم جديد من عوالم الفكر والعلم . . . ورحل إليها "ريجيومونتانوس" بحثاً عن الجدول اليومى لمواقع الأفلاك ، ذلك الجدول الذى مكن " هنرى الملاح " و "ڤاسكو دى جاما " و " خريستوف كولومبوس " من جوب المحيطات ، والانطلاق إلى أبعد الآفاق . . . وذهب " أديلهارد" إلى قرطبة بحثاً عن النسخة الخطية لكتاب " إقليدس " الذى ظلت معاهد العلم الأوربية تدرسه للطلبة حتى عام ١٥٣٣ . . . وذهب " أفلاطون بيزا " و " فيبروناكى " إلى الأندلس سعياً وراء علوم الجبر والحساب والفلك . . . وراحت الكنيسة تنشد عند العرب تفسير الفكر اللاهوتى . . . وذهب " ألبير الأكبر " و " توماس الإكوينى " إلى ابن سينا والفارابى وابن رشد بحثاً عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية . . . وبينما كان الشعراء التروبادور يرددون أشعارهم الأولى وهم على مشارف الأندلس العربية جاهر " روجر بيكون " فى أوكسفورد بأنه لولا الإلمام بكتب العرب لما تيسر وجود أى علم وأية مذاهب فكرية ؛ لقد استيقظت أوربا فجأة فى العصر الوسيط بعد أن غاصت زهاء خمسة قرون فى البربرية ، وهى مدينة بهذه اليقظة للعالم الإسلامى . . . فى حين أنها لا تكاد تكون مدينة بشىء لروما التى لم تمدها ، فيما يتعلق بالأدب ، إلا ببعض مقطوعات شعرية

" لأوفيد " و "كاسيودور " و " بويتشى " . . وإذا افترض أحد أن الشعر العاطفى الغنائى الذى ترامى إلى الأسماع من جوانب البساتين الأندلسية ، شذ عما تقدم ، ولم تقبل عليه أوربا ، فإنه يكون عجباً أن يحتاج المرء ، لإثبات حدوث هذا الإقبال ، إلى حجج يدحض بهاتلك التنبؤات المتخبطة التى يجازف أصحابها بترويجها »[1] ...

ويعد « ديمترى شيلودكو » من أشد المتعصبين لفكرة استقلال الأدب الأوربى . وهو يرى أن « روح » العصر الوسيط الذى ساد أوربا يتكشف بجلاء فى منظومات الشعراء التروبادور . وقد غاب عنه أن ذلك « الروح » الذى تكشف فى أوربا خلال نهضة القرن الثانى عشر ، إنما هو متولد ، بجميع سماته وعناصره ، كما قال بريفو ، من اتصال أوربا وقتذاك بالحضارة العربية .

ويذهب نيكلسون فى كتابه : « تاريخ العرب الأدبى » إلى عكس رأى " شيلودكو " وقد قال فى ذلك : « ليست المشاعر الرومانسية التى تجلت فى أغانى الحب ، والتى حلت فى العصر الوسيط محل روح البطولة الحربية . . . وليست خلجات التأثر بالطبيعة إلا انعكاساً لملامح الشعر العربى الأندلسىّ الذى هو أقرب إلى مخاطبة الذوق الأوربى من الشعر العربى القديم . . . »

ولم يقتصر شعراء پروڤانس على محاكاة زملائهم الأندلسيين فى نظم الشعر المعبر عن العواطف الرومانسية بأسلوب رقيق مهذب ، ولكنهم حاكوهم أيضاً فى استعمال القافية التى لم تعرفها أوربا من قبل . وقد أشار « دى ساسى » إلى ذلك فى كتابه « بحث أولى فى العروض عند العرب » ، إذ قال : « العرب هم الذين نقلوا القافية إلى الشعر الأوربى » .

ولم يسبق الشعراء التروبادور غيرهم إلى فكرة نظم الشعر باللغة الدارجة ، كما يخيل إلى مؤرخى الأدب ، فقد حاكوا العرب حتى فى ذلك ، فإن الأندلسيين نظموا الزجل ، وقامت بين أنصاره وأنصار اللغة الفصحى معركة أدبية تجاوزت أصداؤها جبال البرانس ، وترددت فى أرجاء پروڤانس قبل أن يبدأ فيها شاعر بنظم بيت من الشعر . ومما يؤيد هذا الرأى أن ابن قوزمان ، أشهر ناظمى الزجل الأندلسىّ وأنشط المدافعين عن الكتابة باللغة الدارجة ، كان قدوة لشعراء پروڤانس الذين

---

(١) كتاب بريفو السابق الذكر ص ١٩ ، ٢٠ .

لم يقتبسوا معانى أزجاله فحسب ، ولكنهم ترسموا تلك الأزجال من ناحية أوزانها ، وترتيب قوافيها ، ونسجوا على منوالها .

وأكبر الظن أن أشعار التروبادور هى التى أوحت ، بعد رواجها ، إلى بعض الأدباء الفرنسيين أن يترجموا مختارات من الأعمال الأدبية المكتوبة باللاتينية إلى لغتهم الدارجة ؛ وكان تحقيقهم لهذه الفكرة بداية إلمام الشعوب الأوربية بالأدب اللاتينى الذى جاء تأثيره فيهم تالياً لتأثير الأدب العربىّ ، وثانوياً بالنسبة إليه .

وقد أشار بيير ديكس فى كتابه « القصة فى سبعة قرون » إلى أول ترجمة من هذا القبيل ، إذ قال : « وفى عام ١١٦٥ قام الشاعر الفرنسىّ "بينييت دى سان مور" بترجمة " قصة تروادة " من اللاتينية إلى الفرنسية ، وحافظ على شكل الأصل فترجمها شعراً ، وقدم لها بمنظومة جاء فيها " لهذا أريد أن أشرع فى نظم ملحمة وجدتها مكتوبة باللغة اللاتينية . . . وسأواصل ترجمتها ما دامت الموهبة تسعفنى ، والقدرة تواتينى . . . وغايتى أن يتمتع بقراءتها كل من يجهل تلك اللغة " . . . وبهذا العمل فتح ذلك الشاعر باب الترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية » .

ومما لا جدال فيه أن تخلص الأدب الأوربىّ فى ذلك الوقت من اللغة اللاتينية ، واتخاذه اللغات المحلية أداة للتعبير بدلاً منها ، فتح أمامه باب التقدم على مصراعيه . والدلائل تشير ، كما قدمنا ، إلى أن العرب هم الذين هدوه إلى هذا السبيل ؛ وبذلك يكون لهم ، من هذه الناحية أيضاً ، فضل على النهضة الأدبية الأوربية .

وإذا اقتنع القارئ من الأدلة والأسانيد التى أوردناها بأن الشعراء التروبادور تلقنوا فن الشعر من العرب ، ونسجوا منظوماتهم على منوال الشعر العربى ، فقد بقى أن نبين له أثر تلك المنظومات ، العربية الشكل والمضمون ، فى نقل الخصب ، كما قال بريفو ، إلى لغات أوربا المحلية ، وحركاتها الأدبية ، حتى يقتنع بأن الشعر العربى كان مصدراً أساسياً لنهضة الأدب الأوربىّ بأسره . . . والوسيلة المثلى لإقناعه بذلك هى الاستشهاد على صحة زعمنا بأقوال مؤرخى الأدب الأوربيين أنفسهم ، كما فعلنا من قبل .

ونبدأ بإحالة القارئ إلى ما نقلناه فى أول هذا الفصل من أقوال « بريفو » فى هذا الصدد ، لا سيما قوله عن منظومات الشعراء التروبادور إن صداها تردد فى شعر

ذلك العصر ، وفى أغانى المنشدين الجوالين فى الشمال ؛ وقوله إنها ابتعثت لألاء الشعر الإيطالىّ الذى لم يلبث أن أيقظ أوربا بأسرها ، كما ابتعثت ، حتى فى ألمانيا وإنجلترا ، بشائر تقليد أدبى جديد . . .

وقال « پيير ديكس » فى كتابه سالف الذكر : « قام عرب الأندلس ، خلال القرن العاشر الميلادى ، بنشر حضارة جديدة أصيلة ، وابتدعوا شعراً عاطفيًّا غنائيًّا نقله الشعراء التروبادور إلى الشمال . وتدل المراجع التاريخية على أن الإسپان ، بعد غزوهم الأندلس العربية ، وجدوا قصورها ملأى بالشعراء العرب الذين وقعوا فى الأسر وظلوا يعيشون فى كنف الأمراء الجدد . . . ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسى ذكر هذه الحقائق المؤيدة بالأدلة الثابتة » .

وقال تيودور چيرولد : « كثيراً ما أشار النقاد إلى افتقار منظومات الشعراء الفرنسيين فى الشمال إلى الأصالة ، لا سيما شعرهم الغزلىّ ؛ فالعواطف التى عبروا عنها ، وطريقتهم فى عرضها ، وأسلوب شعرهم ، وفنون صياغته ؛ كل ذلك حاكوا فيه الشعراء التروبادور »[١] .

وقال « ج . بدييه » و « ب . هازار » : « أشعار وسط فرنسا كلها سابقة بجيل ، أو بعدة أجيال ، على أقدم أغانى الشمال . والأصل الذى أوحى بها جاء من "پروڤانس"[٢] » .

وقال « روبير بريفو » : « . . . ويبدو أن المنظومات الغنائية الأوربية ، السابقة على الشعر البروڤانسى — كانت مجردة من أية مميزات ، وبعيدة الشبه عن مفهومنا لشعر الغزل . . . وليس أسلوب الشعر الأوربى العاطفى هو وحده المستمد من الشعر البروڤانسى ؛ ولكن ما طرأ من تغير على المشاعر الإنسانية ، بل على مفاهيمها التى حددت الفرق بين أدبنا الجديد وأدبنا القديم البربرىّ . . . مستمد أيضاً من ذلك الشعر . . .

« ونهضة القرن الثانى عشر الفريدة ، المتمخضة عن نوع جديد من الشعر الغنائى ، وعن أساليب فنية مستحدثة فى الآداب الأوربية ، هى ظاهرة نشأت بعد توافر

---

(١) كتاب « الموسيقى فى القرون الوسطى » ص ١٦٩ .

(٢) كتابهما « شرح تاريخ الأدب الفرنسى » ص ٢٨ .

ظروف محلية مؤاتية . . . بيد أنها تتصل ، على الأخص ، بما أحدثته الحضارة العربية الأندلسية من أثر فى جنوب فرنسا ؛ تلك الحضارة التى ازدهر بين ظهرانيها ، منذ القرن العاشر الميلادى ، أدب عاطفىّ ، فياض بالمشاعر ، موسوم بالذوق الرومانسىّ ، وبالملامح الفنية التى تميز بها شعر بروڤانسى »[١] .

وقد تأثر الشعر الإنجليزىّ أيضاً ، قبيل عصر تشوسر ، بل فى عصره أيضاً ، بالشعر العربىّ ، وتتضح هذه الحقيقة إذا ثبت تأثره بالشعر البروڤانسى الذى سبق أن دللنا على أنه لا يختلف عن الشعر العربى فى شكله ومضمونه . ونكتفى هنا بعرض مقتطفات من آراء الباحثين الثقات فى هذا الأمر ، على أن ندلى بالحجج التى تثبت دعوانا فى فصول تالية .

قال « ج . أوديو »[٢] : « أثّر الشعراء التروبادور فى الشعراء الإنجليز تأثيراً لا يختلف عن تأثيرهم فى سائر شعراء أوربا » .

وقال « هـ . ج . تشيتور »[٣] : « من الواضح أن الشعر الغنائى الإنجليزىّ مدين إلى حد كبير للشعراء التروبادور . ودراسة المقطوعات الشعرية الإنجليزية ينبغى ألا تبتعد عن اتخاذ الشعر البروڤانسىّ العاطفىّ نقطة انطلاق » .

وقال « روبير بريفو »[٤] : « عندما اعتلت " أليونور الأكيتانية " عرش إنجلترا — وهى حفيدة الكونت جيوم دى بواتييه ، أول الشعراء التروبادور فى بروڤانس — دعت الشعراء إلى عبور المانش ، وفتحت لهم « أبواب البلاط . . . والقصائد العاطفية الأنجلوساكسونية الجميلة التى نبع منها الشعر الإنجليزى الأخاذ ، صاعداً فى خط مستقيم إلى شكسپير ، ثم إلى شيلى ، تلقّت نماذجها من أغانى بروڤانس الشعرية التى أحبها الأمراء النورمانديون » .

وأقر « هودجارت » بمثل ذلك إذ قال فى بحث له بعنوان « الشعر العاطفىّ والقصصىّ فى العصر الوسيط »[٥] : « يمكن تقسيم الشعر العاطفىّ الفرنسىّ إلى أغان

---

(١) كتاب بريفو السابق الذكر صفحة ١٨ .
(٢) كتابه « الشعراء التروبادور الإنجليز » صفحة ١٢٩ .
(٣) كتابه « الشعراء التروبادور وإنجلترا » صفحة ١٣٥ .
(٤) كتابه السالف الذكر صفحة ١٣ .
(٥) كتاب « عصر تشوسر » صفحة ١٦١ ، وهو يتضمن ، كما قلنا ، سلسلة بحوث عن الأدب الإنجليزى فى ذلك العصر .

غزلية وأخرى شعبية . والنوع الأول المنطوى على المبالغة ، ابتدعه الشعراء التروبادور للتعبير عن "مذهب" الحب المهذب . . . وأول أولئك الشعراء هو جيوم دى بواتييه . وفى قصائده الغنائية القليلة ، المنظومة حوالى عام ١١٠٠ ، تجلى الشعر المحكم الوزن ، المجمل بالقافية ، كما ظهرت لغة المجاملة ، وتحليل انفعالات الحب ، وتوكيد سمو العاطفة ، والخضوع للحبيبة ، والإفاضة فى إطرائها ، وما إلى ذلك مما أصبح اليوم شائعاً مألوفاً فى أشعار الحب الرومانسى . وأغلب الظن أن شعر التروبادور كان منذ البداية تقليداً أدبياً غير وثيق الصلة بالحياة الاجتماعية ، فإن جيوم التاسع لم يكن فى حاجة إلى الخضوع لمخلوق فى فرنسا ، ونحن نعلم من بعض شعره كم هو قادر على أن يكون خشناً فى حياته العملية . . . ولعل شعر التروبادور كان نتيجة لتطور شعر فرنسى عاطفى سابق عليه ، اندثرت آثاره ، أو لعل الشعراء التروبادور — كما يرى بعض العلماء اليوم — نقلوا عن حضارة العرب أسلوب شعرهم ومعانيه . . . وعن طريقهم انتشر هذا الفن فى شمال فرنسا ، ثم فى أرجاء ألمانيا وإيطاليا . . . ولدينا اليوم فى إنجلترا نماذج من الشعر العاطفى الغنائى أغلبها موجود ضمن مجموعة " ليومينستر " الخطية . وهى ليست كلها من نوع أغانى الشعراء التروبادور . بيد أن بعضها يطالعنا بشكل الموشحات ، وبأساليب أولئك الشعراء ومعانيهم ؛ فهى تتضمن نفس الافتتاحيات التى يبتهل فيها ناظمها إلى الربيع . . . ونفس التحليل للحب المحروم . . . ونفس أوصاف الحبيبة الفاتنة ، وأمنيات العاشق وجزعه واضطرابه . . . » ومن الواضح أن الخصائص المذكورة عربية أصيلة .

وأقر « درايدن » بفضل الشعراء التروبادور على تشوسر فى قوله[1] : « كان تشوسر أول من هذّب لغتنا الفقيرة وأغناها ، وذلك بمآديه فى الاقتراض من " بروڤانس " أنقى الصيغ البيانية المعروفة فى تلك الحقبة » .

* * *

أما التيار الأدبى الآخر الذى هبّ على أوربا من الشرق العربى فيعترف به حتى من أنكروا تيار الشعر العاطفى الغنائى الذى هبّ عليها من الأندلس . وسبب هذه

(١) كتاب « مقالات عن المسرحيات الدرامية » ص ٢٧٤ .

التفرقة التى تدعو ، لأول وهلة ، إلى العجب ، هو زعم دعاة هذه التفرقة أن أوربا لم تجتلب من الشرق العربىّ إلا القصص والروايات والحكايات ، وأنها طورت هذا اللون من الأدب ، بعد اجتلابه ، تطويراً جذرياً ؛ فهى غير مدينة للعرب فى هذا المجال إلا بفضل التوجيه الأولىّ . وهذا الفضل فى نظرهم غير ذى بال . أما تيار الشعر العاطفى الأندلسىّ فله شأن آخر ، لأن التسليم بانتشاره فى أوربا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وبما أحدثه من أثر فيها ، يفضى إلى التسليم بأنه باعث نهضتها ؛ وإلا تعذر تفسير السبب فى انبثاق نهضتها بغتة فى ذلك الوقت بالذات ، وتعليل التغير الذى طرأ على طباع الأوربيين وأخلاقهم وأذاقهم ، والسمو العاطفى الذى نقلهم فجأة من حضيض الهمجية إلى مراقى المدنية .

بيد أن فضل قصص العرب على أوربا يضارع فضل شعرهم ، فكلاهما تعاون على تحقيق نهضتها الأدبية التى قام عليها صرح رقيها الحضارىّ . وسنشرح ذلك بالتفصيل فى فصول تالية . . . ونهى الآن هذا الفصل بذكر ما قاله بعض مؤرخى الغرب الأوربى عن ذلك التيار الأدبى الذى هب على ربوعه من الشرق .

أشار « جاستون بارى » إلى ذلك بقوله : « من أين جاءت هذه القصص التى انتشرت فى أرجاء أوربا ، ولا يزال عدد كبير منها يلقى قبولاً ورواجاً إلى الآن ؟ . . إن أغلبها شرقى الأصل . وقد جاء بها الأوربيون من البلاد العربية عن طريقين مختلفين كل الاختلاف . . . طريق إسپانيا وطريق سوريا . ففى الشرق ألمّ الصليبيون فى أثناء إقامتهم إلى جانب المسلمين ، واختلاطهم الودىّ بهم فى فترات الهدنة . . . ألموا بعدد كبير من الروايات العربية عن طريق السماع . . . »[1]

ومما قاله أيضاً فى هذا الصدد : « إن هذا اللون من أدب الإمتاع انتشر على نطاق واسع إلى حد أن دراسته تحتاج إلى بحث كامل يخصص لها » .

ونقتطف كذلك قوله : « ترجم عدد كبير من القصص العربية إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية ، وتولدت منها سلسلة طويلة من الروايات ؛ بل هناك مجموعة كاملة من قصص عربية الأصل انتقلت إلى أوربا بفضل " بوكاشيو " وغيره من الكتاب الإيطاليين ، وظل فيضها يتدفق

---

(١) الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى ص ١١٩ .

حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ وفى فرنسا ظهرت قصص مشهورة نبعت مباشرة من أصل عربى ، منها قصة " فلوار وبلانشفلور " وقصة " أوكاسين ونيكوليت " و " وصية كلب " و " الليلة الطويلة " و " الطبيب الشرير " — وقد اقتبس " موليير " من هذه القصة الأخيرة موضوع مسرحية " طبيب برغم أنفه " — بل إن قصص الفروسية الأوربية نفسها مزوّقة بالألوان الشرقية ، وبعضها منقول من الأدب العربىّ نقلاً . وحتى القصص التى تطرق الموضوعات الدينية ، وسير القديسين ، نابعة أيضاً من ذلك المصدر » (١) .

وأخذ چيب بهذا الرأى فى كتابه « تراث الإسلام » إذ قال : « ظهر تشابه قريب بين قصص العرب والقصص الألمانية وغيرها من قصص شمال أوربا . . . والوحى العربى الذى تمخض عن القصة الفرنسية القديمة " فلوار وبلانشفلور " واضح ؛ ثم إن العلاقة بين هذه القصة الأخيرة ، والقصة الشائعة المسماة " أوكاسين ونيكوليت " غير خافية كذلك ، واسم " أوكاسين " عربى ، فأصله القاسم » .

وعلق الأستاذ جلال مظهر على ذلك بقوله : « ذكر الأستاذ چيب أن بطل هذه القصة عربىّ ، واسمه القاسم ، فى حين جاء فى مرجع أكسفورد للأدب الإنجليزى أن " نيكوليت " أسيرة عربية جميلة هام أوكاسين بحبها ، وهو ابن أمير من أمراء پروڤانس »(٢) .

أما رينان الذى أنكر وجود أية صلة بين الشعر الأوربى والشعر العربى ، مجارياً فى ذلك بعض مواطنيه المؤرخين الذين غلبت عاطفتهم الوطنية على إخلاصهم للحقيقة ، فلم يستطع أن يتخذ مثل هذا الموقف من قصص العرب ورواياتهم لأنه لم يجد أحداً تجرأ على اتخاذه ، مغمضاً عينيه عن الحقيقة الصارخة التى اضطر إلى الاعتراف بها فى قوله : « من المسلم به عموماً أن أوربا استوردت من العالم الإسلامىّ قصصه ورواياته وحكمه وأمثاله »(٣) .

ومما قاله أيضاً : « إن الأعمال الأدبية كانت تنتشر فى القرون الوسطى بسرعة مذهلة ، فإذا صدر كتاب فى القاهرة أو فى مراكش عرفه أدباء باريس أو كولونيا

---

(١) كتابه السالف الذكر ص ٢٣٣ .

(٢) كتابه مآثر العرب على الحضارة الأوربية صفحة ٩١ .

(٣) كتابه « ابن رشد وفلسفته » ص ١٥٩ .

فى مدة لا تزيد على المدة التى يستغرقها انتقال الكتاب الهام اليوم فى ألمانيا من إحدى ضفتى الرون إلى الضفة الأخرى» [١] . . . فالكتب العربية استطاعت ، فى نظره ، أن تجتاز الهوة التى عجز الشعر الأندلسىّ عن اجتيازها ! ! . . .

وهذا التفريق بين الكتب والشعر الغنائىّ فى تنقلهما من بلد إلى بلد يدعو إلى الدهشة ، فالواقع أن الشعر الغنائى فى القرون الوسطى كان أسرع تنقلاً بين مختلف البلاد من سائر ألوان الأدب ، وكانت حركة ترجمته إلى مختلف اللغات أنشط من حركة ترجمة الكتب .

وأشار « پيير ديكس » إلى اتصال الصليبيين بالعرب وأثره فى ميدانى الاقتصاد والفكر إذ قال : « نحن لا نستطيع أن نحدد طبيعة اتصال الصليبيين بالعرب ، واحتكاكهم بالحضارة العربية ، ولكن الذى لم يعد مجهولاً هو ما أسفر عنه ذلك الاتصال والاحتكاك من نتائج فى عالم الاقتصاد والفكر ، وما تبع ذلك من تطور طرأ على ذوق الأوربيين الحضارىّ ؛ وبهذه المناسبة نشير إلى اتجاه معاد للعرب يحاول فى غير وعى أن يتحاشى ، عند التعرض لتاريخ الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط ، ذكر ما أفاده ذلك الأدب من مقومات الحضارة العربية الشرقية والأندلسية . . . »[٢]

ونختتم هذا الفصل بقول « فيليب حتى » فى ذلك الصدد : « أما تأثير العرب فى ميدان الأدب فهو أوسع نطاقاً . فمجموعة أساطير " الإناء المقدس " تمت بصلة ، دون أدنى ريب ، إلى أصل سورىّ . . . ولا بد أن الصليبيين استمعوا إلى قصص وحكايات من " كليلة ودمنة " ، ومن " ألف ليلة وليلة " ، وحملوها معهم عند عودتهم إلى أوربا . وقصة " تشوسر " المسماة « قصة سكوايرتيل » هى إحدى قصص " ألف ليلة " . وقد استمد " بوكاشيو " من القصص الشرقىّ — عن طريق السماع — حكاياته التى جمعها تحت اسم " ديكاميرون " . وفى وسعنا أن نعزو إلى الصليبيين أيضاً سبب اهتمام المبشرين الأوربيين باللغة العربية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية »[٣] .

---

(١) يراجع كتاب بريفو السالف الذكر صفحة ٦٧ .
(٢) كتابه السالف الذكر ، صفحة ٤٢ ، وما ورد فى هامشها .
(٣) كتابه السالف الذكر ص ٦٦٣ .